

## المبحث الأول

### تاريخ فكرة التطور

#### النسبية في الفكر الأوربي

#### \* نظرية دارون ونقدها

النظرية النسبية هي أساس كل ما كتبه العلمانيون عن تطوير الخطاب الديني والسوفسطائيون القدماء في اليونان ( القرن الخامس ق. م ) هم أول من قال إن المعرفة والأخلاق نسبية. وقد زعم كبيرهم جورجياس أن: "الإنسان معيار كل شيء"، بمعنى أن الإنسان هو الذي يقرر ما هو موجب وما هو سالب من القيم الأخلاقية، وما هو صواب وما هو خطأ في المعارف العلمية<sup>(١)</sup>. وأنكر عليهم سقراط ذلك وأثبت موضوعية الحقائق العلمية والقيم الأخلاقية. ومن هنا برزت قضية الثابت والمتغير (أو المتطور) في الفلسفة الأوربية، غير أن بذورها كانت موجودة قبل ذلك.

وغلبت فكرة الثبات في الفلسفة الأوربية الوسيطة والحديثة إلى أن جاء "دارون" (١٨٠٨-١٨٨٢) بنظرية التطور. ولقد نقل "هربرت سبنسر" نظرية دارون من علم الحياة إلى علم الاجتماع. وزعم أن نظرية التطور صالحة للتطبيق على المجتمع البشري صلاحيتها للانطباق على الحيوان. وعلى هذا اعتبرت الثقافة الغربية هي قمة التطور الثقافي للبشرية! وتبعاً لهذا كانت الثقافات الأخرى متخلفة؛ والدفاع عنها دفاع ضد قانون التطور! ونظرية التطور تستند إلى فرض أساسي يقول إن الجنس البشري عبارة عن تطور لأصول حيوانية منحطة، ذات خلية واحدة.

(١) كرسون، المشكلة الأخلاقية، ص ٣٨

ولقد تعرّضت نظرية دارون لانتقادات علمية. فيقول "م.م. قادري" وهو أستاذ هندي متخصص في علم الحياة إن دارون تشكك في صحة نظريته قبل وفاته، وأعلن أنه إذا اكتُشف أدنى خطأ فيها كان من المحتم أن تنهار النظرية كلها. لكن أخطاء كبيرة اكتشفت. وعلى الرغم من ذلك بقيت نظرية التطور حية. فلماذا؟ إن السبب عند "قادري" هو أن البديل لنظرية التطور هو الإيمان بالخلق كما جاء في الدين. وهذا البديل مرفوض لدى العلماء الأوربيين الذين يمتنون الدين. ثم يورد قادري بعض الأخطاء الكبيرة في نظرية دارون فيقول:

( ١ ) إن الحفريات في الصخور والبقايا التي عُثر عليها لا تُبين أي تطور بطيء من أسرة إلى أسرة. والأنواع هي ثابتة لا تتطور. وتظهر أنواع حيوانية بغتة. ولا يوحد أي دليل على أنها تطورت عبر الزمن. ولم يعثر في الحفريات على أية صورة متطورة. إن الأسر الحيوانية الموجودة الآن توجد منها بقايا (رميم) ولكن لا توجد بقايا سلاسل تبين تطوراً أفرز الكائنات العضوية الجديدة. مثلاً: انقلاب القشريات إلى طيور! أو تطور الزعانف إلى أقدام، أو الأقدام إلى أجنحة. وقد حاول دارون الرد على هذا النقد قائلاً إن السجل البيولوجي ناقص جداً. والرد على ذلك هو: لماذا يبني نظرية على معطيات ناقصة نقصاً كبيراً؟ وسؤال آخر هو: لماذا نجد نقص السجل عند النقاط الحرجة التي ترتبط عندها أنواع الحيوانات، ثم نجده كاملاً في داخل الأنواع؟ فيقول الدكتور كلارك . Dr. Clark وهو بيولوجي في معهد سميثسونيان Smithsonian في المجلة الفصلية لعلم الحياة إن الذي حدث هو سلسلة قفزات من صورة أساسية للحياة إلى صورة أخرى، ولم يحدث تطور كما زعم دارون. وقال "كلارك" أيضاً إن البراهين على الخلق كما جاءت في الدين هي أمثن البراهين. فالله هو الخالق. ولم تتطور مجموعة حيوانية عن غيرها.

( ٢ ) ويدعى أنصار نظرية التطور أن الحياة بدأت في العصر السابق على العصر

الكامبريانى Pre Cambrian Age . ولكن سجلات الرمائم تبدأ فى العصر الكامبريانى فقط . ولا توجد أية إشارة إلى وجود متدرج من الكائن وحيد الخلية من البروتوبلازم .

( ٣ ) فكيف يدعى أنصار التطور وجود الحياة فى العصر السابق على العصر الكامبريانى على الرغم من عدم وجود أى دليل على ذلك الوجود من الرميم؟ وأين البرهان على أن الحياة تطورت من جزء صغير جداً من بروتوبلازم؟

( ٤ ) إن سجلات الرميم تبين أن الخفافيش الأولى كانت خفافيش حقيقية؛ والحيتان الأولى كانت حيتاناً حقيقية، والطائر الأول كان ريشه كاملاً، والحشرات الأولى كانت حشرات متطورة فى صورة كاملة. وكل مجموعة حيوانية أو نوع حيوانى يبدو وقد تولد بغتة . ولا توجد أنواع حيوانية متوسطة التطور تربطها بالأنواع السابقة . فلا توجد أنواع انتقالية .

( ٥ ) يزعم أنصار التطور أن الحياة ذات الخلية الواحدة تطورت حتى صارت إنساناً، عن طريق اختلافات أو تطورات صغيرة ورثها جيل عن جيل، وتراكمت . فالاختلافات التافهة تنتقل من جيل إلى الذى يليه، وبالتدريج، ومع التراكم، يظهر حيوان جديد . وهذه النظرية تستند إلى فرض يزعم أن الاختلافات تتوارث . وهذا موضع شك ورفض، لأنه يناقض الحقيقة الثابتة . ومعظم البيولوجيين رفضوا ذلك الفرض . ويقول " هو جو دى فرى " Hugo de Vries : إن الانتقاء الطبيعى قد يفسر بقاء الأصلح، لكنه لا يستطيع أن يفسر وصول الأصلح .

ويقول الأستاذ قادرى إن هناك أسئلة أخرى محيرة :

( أ ) فكيف تطورت العين أو الأذن أو الرئة عن طريق التحورات المسيرة وتراكمها؟

(ب) وإن للعناكب أعضاء خاصة لنسج بيوتها، وبدونها لا تستطيع الحصول على طعامها. فكيف بقيت على قيد الحياة ملايين السنين التي كانت تلك الأعضاء تتطور فيها؟ وإذا كانت تحصل على طعامها بطرق أخرى، فأية حاجة كانت هناك لظهور أعضاء لنسج البيوت؟

(ج) وإذا كانت الحيوانات المتوحشة التي تحضن صغارها تطورت ببطء عبر آلاف الملايين من السنين، فكيف بقي الصغار على قيد الحياة طوال تلك الحقبة؟ وإذا كانت الصغار تغذى بطريقة أخرى (غير الحضانة)، فما الحاجة التي جعلت تلك الوحوش تتطور على الدوام؟

(د) ولماذا سارت الأعضاء التناسلية لدى الذكر والأنثى في تطورها بحيث يتكامل بعضها مع بعض تكاملاً تاماً؟ ويتوازي بعضها مع بعض، على الرغم من أنها مستقلة بعضها عن بعض، وموجودة لدى أفراد مختلفين، إلى أن يبدأ استعمالها بعد ملايين السنين؟ ولتلاحظ أن الأعضاء التناسلية المتوسطة النمو، والتي لا فائدة فيها، لا يمكن أن تبقى على قيد الحياة بحسب نظرية دارون.

(هـ) ولقد ربّى البرفيسور مؤثر Prof. Muller من جامعة إنديانا - ومن أنصار مذهب التطور - ٩٠٠ جيل متوالين دون انقطاع من ذباب الفاكهة، فوجد الذباب هو هو لم يتغير ولم يتطور. فلماذا؟

(و) ليس ثمة فرض اليوم يفسر لنا أصل الحياة الأولى على الأرض. فكيف يفسر أنصار التطور - تفسيراً مقنعاً - تخلق الحياة من مادة لا حياة فيها؟ واتخذ الماديون من نظرية التطور أساساً للزعم بأن الإنسان انحدر من الحيوان، فهو حيوان في جوهره، ولا فرق بين الإنسان والوحش. وهذا خطأ، فهناك فروق، لا يستطيع الماديون إنكارها أو تفسيرها:

(أ) فكل الحيوانات، ابتداءً من أدنى الديدان إلى أعلى القروود، عبيد لغرائزها الفطرية. فهذه الغرائز تكرهها إكراهاً على إتيان أعمال معينة مميزة في مواقف معينة مميزة. فالذئب الجائع لا يستطيع تحاشي الانقراض على خروف وديع، لكن علي ابن أبي طالب أعطى ما بيده من خبز إلى سائل في حين كان هو نفسه يعاني الجوع لمدة ثلاثة أيام. فكيف يمكن تفسير هذا المسلك الغريب حيث يتجاهل المرء غريزة البحث عن الطعام وغريزة حفظ الذات، لصالح إنكار الذات؟

(ب) وموضوع أنشطة الحيوان كلها وغايتها حفظ النفس والحفاظ على الذات، والحفاظ على النوع. فالحيوان -بحكم طبيعته ذاتها- لا يستطيع أن يفعل أى شىء يحتمل أن يضر وجوده. فلو كان الإنسان ليس سوى حيوان، فكيف نفسر حالات الانتحار والتضحية بالنفس؟

(ج) والإنسان لديه وعيٌ بنفسه، ولديه إرادة حرة. والوعي بالنفس والإرادة الحرة لا يتمتع بهما أى من الحيوانات. فكيف يفسر أنصار التطور هذه الحقيقة؟

(د) والحيوان لا يستطيع أن يستجيب لأى مثير إلا بطريقة واحدة فقط. فالخلية التى بناها النحل منذ عشرة آلاف سنة كانت على النمط نفسه الذى نشاهده اليوم. ولكن الإنسان طور مسكنه من المغارة إلى ناطحات السحاب. فمن أين جاء هذا الفرق الأساسى؟

(هـ) وكل فرد من البشر لديه وعيٌ فطرى بوجود الله، ولديه وعيٌ خلُقى. ويوجد لديه معنى العدل ومعنى الحق على نحو فطرى فى كل عقل بشرى. ووجودهما ليس نتيجة إقناع أو تربية. أما الحيوانات فلا تدرك شيئاً عن هذه المعانى النبيلة. فلماذا هذا الفرق؟

(و) إن لدى الحيوانات إحساسات وصور وبواعث ... إلخ، لكن الفكر بمعناه

السديد حكر على الإنسان وحده . ومجال الفكر الإنساني يمتد من أدنى الدرجات إلى أعلاها . فهل بوسع أحد أن يفسر وجود هذا الفرق؟

( ز ) والإنسان مُزوَّد بضمير وذكاء وعقل، لكن هذه المواهب غائبة عن عالم الحيوان . فلماذا ؟

والحق أن نظرية التطور لا تزال غير قابلة للبرهنة والإثبات . وكثير من العلماء الذين قبلوها لا يؤمنون بصحتها، لكنهم يخشون زملاءهم من أنصارها . فنظرية التطور مجرد اعتقاد في مريم لا وجود له، واعتقاد بوجود الروابط المفتقدة والتي لا تزال مفتقدة . إنه اعتقاد أعمى أملاه الخوف من الإيمان بالخلق كما جاء به الدين، شأن علماء عديدين في الغرب ضحايا الأحكام المسبقة ضد الدين اليهودي والمسيحي . وهكذا خضعوا لمزاعم غير علمية، ونتيجة لذلك اعتنقوا الفلسفة المادية<sup>(١)</sup> .

هذه هي النظرية التي أريد لها أن تطبق على كل شيء، بما في ذلك الدين : عقيدة وشريعة وأخلاقاً . وهذه هي النظرية التي رفعت كل فكرة تطويرية إلى عنان السماء!

ويقول الأستاذ العقاد إن أنصار التطور : "لم يذكروا حتى الآن حيواناً تحول من نوع إلى نوع بفعل الانتخاب الطبيعي، أو بفعل تنازع البقاء وبقاء الأصلح، ولكن بطلان القول بهذا الانتخاب لم يَثْبُت كذلك بالدليل القاطع على وجه من الوجوه"<sup>(٢)</sup> .

ويقول فريد وجدي إن نظرية دارون قُبلت لدى العلماء : "لأنها أقرب لحل المعاضل العلمية"، لا لأنها أصبحت من المعلومات الممكن إثباتها بالحس .

(1) Jameelah; Western Civilization Condemned Itself; p. 87

(٢) الإنسان في القرآن ؛ ( الموسوعة ) ط٤ سنة ١٩٧٤م، ج١ ص ٢٥٢ . ٢٥٣

ثم يورد عليها ثلاثة اعتراضات رئيسية :

( ١ ) "عدم مشاهدة أى ارتقاء من أى نوع كان فى الأحياء الأرضية من عهد الؤف عديدة من السنين".

( ٢ ) عدم وجود الصور المتوسطة بين الأنواع اللازمة لمذهب التسلسل، كأن يوجد -مثلاً- حيوان أرقى من القرد رتبة واحدة، وأدنى من الإنسان رتبة واحدة أيضاً".

( ٣ ) "طول الزمان اللازم لحصول الترقى بين الأحياء ( حسب نظرية دارون ) فإن عمر الأرض كما قالوا لا يكفى لإحداث كل ما يُرى من هذه الأشكال المختلفة غاية الاختلاف" (١).

ويقول باحث علمى حديث إن هناك مشكلات تواجه نظرية دارون؛ وأكبر هذه المشكلات هى: كيف ظهر الإنسان عقب ظهور القردة؟ "ومن أى الشعب تفرع؟ وعندئذ تأخذ الاحتمالات والتكهنات مكانها، وذلك عندما يكتنف الغموض الحقائق العلمية." ولا يزال هذا الموضوع -وهو أصل الإنسان- موضع مناقشات وجدل، وسيستمر كذلك حتى تنجلي حقيقته.. وهنا يستطيع العلم أن يقول كلمته" (٢).

صفوة القول إذن إن مذهب دارون فى التطور الحيوى - البيولوجى - لا يزال مجرد فرض علمى تواجه القول بصحته مشكلاتٌ عويصة، ومن العلماء من يرفضه، ومنهم من يقبله على علته ويحاول ترميم تصدعاته.

لكن بعض الكتاب تناسوا هذه الحقيقة العلمية، بل راحوا يوسعون مجال نظرية

(١) دائرة معارف القرن العشرين، ج٤ ص ٣٠، ٣١

(٢) على أحمد الشحات؛ نظرية التطور بين العلم والإيمان؛ الخانجى بالقاهرة؛ ص ١٠٤، ١٠٥

التطور لكي تشمل كل نواحي الحياة البشرية الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، راعمين أنها ليست فرضاً بل حقيقة يفيينية .

وفي العالم الإسلامي كانت غاية أنصار التطور هي استبدال الحضارة الأوربية الحديثة "المتطورة" بالحضارة الإسلامية "القديمة"؛ وكذلك الثقافة الأوربية بالثقافة الإسلامية . وذلك لا يتحقق لهم إلا إذا كانت نظرية التطور حقيقة كونية شاملة، لا نظرية ظنية محدودة بحدود علم الحياة .

والحق أن الحماس لنظرية دارون بلغ أشده في العالم كله، حتى أن "أرنست هكّل" العالم الألماني زورّ صور الأجنة لكي يثبت التشابه بينها؛ فهذا التشابه دليل على وجود التشابه في الأزمنة السحيقة بين أنواع الحيوانات . واعترف "هكّل" - تحت ضغط الاعتراضات العلمية عليه - بأنه اضطر إلى تكملة الشبه في نحو ٨٠٪ من صور الأجنة لنقص الرسم المنقول . (١) كأن المسألة لم تعد علماً، بل صارت ديانة يتعصب لها أشياعها ويزورون من أجل الانتصار لها!

#### ● نيتشه :

ولعل "فردريك نيتشه" (١٨٤٤-١٩٠٠م) هو أبرز ممثل لنظرية التطور في مجال الفلسفة الأخلاقية . فهو يعتقد أن القيم نسبية، وأنها من صنع الإنسان، كما قال السوفسطائية . وقد حمل على المسيحية بشدة بوصفها: "ورشة لتصنيع القيم الفاسدة" (٢) .

زعم "نيتشه" أن الإنسان هو الذي يُصنّفى القيم على الأفعال أو يجردها منها بإرادته . والإنسان لا يثبت على إرادة، وإنما هو يتغير ويتطور . وتبعاً لذلك كان من المحتم أن تتطور القيم بتطوره (٣) .

(١) عباس محمود العقاد؛ الإنسان في القرآن؛ ص ٣١١

(2) Kenedy; Nietzsche; p. 55

(3) Kenedy; Nietzsche; p. 50

فلكل عصر قيمه، ولكل عصر تدرج خاص للقيم ترتفع فيه بعض القيم على غيرها. فإذا كانت السلطة في المجتمع بأيدي الأرستقراطية ارتفعت قيمة القوة والتفوق. أما حين يستولى العبيد على زمام الأمور فإنهم يرفضون قيمة الرحمة والشفقة والصبر والتواضع، ويجردون القوة والتفوق من القيمة أو يضعونها في أدنى السلم!

ومن الجلي أن نظرية "نيتشه" باطلة ومتناقضة في باطنها. وسوف نعرض لفكرة النسبية والتطور فيما يلي من فصول هذه الدراسة. فنكتفى الآن بالقول إنه إذا كانت قيم السادة هي الصحيحة وقيم العبيد هي الزائفة، كان معنى هذا أن القيم موضوعية، ويمكن أن يقال إن بعضها صواب وبعضها خطأ. ولو كانت مرهونة بإرادة الإنسان لما أمكن ذلك.

### المذاهب المضادة للنسبية

وكان الفيلسوف الألماني الأكبر عمانويل كانط (1724-1804م) قد سبق نظرية دارون، وأرسى القيم على أساس ثابت وطيد، ورفض نظرية النسبية رفضاً باتاً. (١) فعند "كانط" لا يمكن أن تكون القيم ملزمة لأحد إلا إذا كانت مطلقة، ثابتة، ضرورية. ومعنى هذا أن التطور لا مجال له في عالم القيم.

- وسار في تيار "كانط" فلاسفة أوروبا الكبار من أمثال "سيد جويك" و"بتلر" و"مور" و"شيلر" و"نيكولاى هارتمن" الذي أكد بقوة أن القيم مثل البدهيات الرياضية في ثباتها وإطلاقها، وأن إرادة الإنسان هي التي تتبدل بتأثير القيم (٢). هذا مع ملاحظة أن هارتمن وضع مذهبه بعد ذبوع نظرية دارون بحوالي سبعين عاماً.

ولا يزال الفكر الغربي حتى اليوم يتأرجح بين النسبية والتغير والتطور الشامل

(1) Brehier (Emile); Histoire de la Philosophie; vol. 2; p 551

(2) N. Hartmann; Ethics; vol. 1; p207

والجذرى من جهة، والشباب والإطلاق من جهة أخرى. فهذا "جون جاردنر" John W. Gardner - وزير التربية الأمريكية الأسبق، ينصح الشباب بأن يعيدوا خلق القيم بدون انقطاع، أو أن يبشروا روحاً جديدة في القيم المعروفة، وإلا فإنها تتآكل وتدهور؛ وإن الذين يفعلون ذلك يستطيعون تجديد النظام الأخلاقي. وفي الوقت نفسه يقرر أنه لا بد من وجود إجماع على بعض القيم وإلا تمزق المجتمع. والمجتمع الأمريكي مجمع على قيم: الحرية، والمساواة في الفرص، وكرامة الفرد، والعدالة، وحلم الأخوة. ويضيف في أسف قوله: لكننا نعرف هذه المثل ولا نحترمها. (١) وهكذا يبدو أنه يعترف بنوع من القيم الثابتة أو العامة، لكنه متردد، وغير قاطع في آرائه، وأسلوبه يفتقر إلى التقرير الدقيق.

وهذا مثال آخر لكاتب متخصص في علم الأخلاق يذهب مذهب كانط وشيلر وهارتمن، فيقرر بوضوح أن القيم مطلقة؛ إنه "ويلتون J. Welton" الذي يميز بين غايات الإنسانية ووسائل بلوغها: "فإن الوسائل لبلوغ تلك الغايات ليس سوى قيمة نسبية. فنحن نحدد لأنفسنا غاية نشد تحقيقها، لأننا نقدرها بوصفها خيرة في ذاتها، وبوصفها تحمل قيمتها في باطنها. لكننا نختار الوسائل التي تفضي بنا إلى تلك الغاية. فقيمتها - أى الوسائل - قيمة أداة "instrumental" (٢) وكذلك معيار القيمة: "مستقل عن الرغبات والأهواء؛ إنه معيار مطلق universal صحيح لدى الجميع." ثم يذكر بعض القيم المطلقة، وهي: السعادة، والحكمة والجمال والسمو الأخلاقي. إنها خيارات مطلقة، واضحة بذاتها، مثل البدهيات الرياضية ومبادئ المنطق (٣).

ويقول الأستاذ Paul Ramsey في جامعة برنستون إن: "القوائم الخاصة بما

(1) John W Gardner; The Individual and Today's World; p . 104

(2) j. Welton: Ground Book of Ethics; p. 69

(3) Ibid; p. 72

يجوز وما لا يجوز ليس لها معنى. " ويقول " جوزيف فلتشر" Joseph Fletcher الأستاذ في المدرسة اللاهوتية في كامبردج إنه لا ينبغي أن تدين الكنيسة أية علاقة جنسية إدانة مطلقة. " ويقول إن الأخلاق الجديدة معيارها النهائي للصواب والخطأ، ليس أمراً مقدساً، وإنما هو الإدراك الحسى الذاتى للفرد لما هو خير لنفسه ولجاره، فى كل موقف يمر به. " (١) فهذه نسبية أخلاقية نفعية، سوفسطائية دارونية نيتشوية.

ولعل هذا هو سبب الفوضى الروحية التى تحدث عنها "إريك فروم" حين قال إننا - أى الأمريكيون - أبدءنا أشياء رائعة، لكننا أخفقنا فى أن نجعل أنفسنا جديرين بها. إن حياتنا - بسودها الإخاء والسعادة والقناعة، بل تجتاحها الفوضى الروحية والضياع الذى يقترب من حالة الجنون: "جنون شبيه بانفصام الشخصية (السكيزوفرينيا)، ينعدم فيه الاتصال بالواقع الباطنى، وينشق فيه الفكر على الوجدان. ويقول "فروم" إن الناس فى بلاده أمريكا يزعمون أنهم سعداء فى حين يبدو الخوف والذهول على الوجوه دون سبب. إنهم لا يعرفون معنى الحياة. إنهم فى حيرة. ثم يتساءل: هل العودة إلى الدين هى الحل؟ (٢).

\* \* \*

---

(1) Jameelah; Islam and Modernism; p. 208

(٢) إريك فروم؛ الدين والتحليل النفسى؛ ترجمة فؤاد كامل؛ نشر مكتبة غريب؛ دون تاريخ؛ ص ٧٩